جامعة الأزهر

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

المجلة العلمية

النساء في القرآن
بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى
نماذج من قصص النساء في القرآن

إعداد

د. رقية بنت محمد سالم باقيس

أستاذ مشارك بقسم الدراسات القرآنية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،

جامعة طيبة ،المملكة العربية السعودية.

(العدد الواحد والعشرون)

(ديسمبر ١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤ م)

النساء في القرآن بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى نماذج من قصص النساء في القرآن

رقية بنت محمد سالم باقيس

قسم الدراسات القرآنية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة طيبة ،المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني: *rbaqees@taibahu.edu.sa*

ملخص البحث:

أهداف البحث: دراسة الآيات الواردة فيها قصص النساء دراسة موضوعية، واستخراج الأسباب والدوافع لتقديم خطاب الشرع ونداء الفطرة على داعي الهوى، وإبراز القدوات من هذه القصص.

خلاصة محتويات البحث: اشتمل البحث على مبحثين؛ الأول: تأصيلٌ لعناصر البحث (خطاب الشرع، نداء الفطرة، داعي الهوى) الثاني: الدراسة الموضوعية للقصص من خلال النماذج الواردة في القرآن، وكانت في تسعة مطالب: أألدُ وأنا عجوز عقيم، ربطنا على قلبها، ربّ ابن لي عندك بيتًا في الجنة، وليس الذكر كالأنثى، يا ليتني متُّ قبل هذا، قالت هيت لك، لا نسقي حتى يصدر الرعاء، كانتا تحت عبدين، وامرأته حمالة الحطب.

أهم النتائج:

بعد استعراض قصص النساء في القرآن محل البحث تبين أن هناك تباينًا بحسب قوة الإيمان وضعفه، فمن كانت عوامل الإيمان والبيئة صالحة؛ قدمت خطاب الشرع الذي لا يتنافى مع الفطر السليمة فنالت الكرامة والجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة، بخلاف من لم تؤمن؛ فقد قدمت جانب الهوى على خطاب الشرع فهلكت ولم تنفعها قرابتها فحق عليها العذاب في الدارين.

الكلمات المفتاحية: النساء، القصص، القرآن الكريم، خطاب الشرع ، نداء الفطرة، داعي الهوى.

النساء في القرآن بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى نماذج من قصص النساء في القرآن

Women in the Quran: Between the Divine Message, the Call of Nature, and the Allure of Desire: Case Studies of Women in Qur'anic Narratives

Raqiya bint Muhammad Salem Baqees,

Department of Quranic Studies, College of Arts and Humanities Taiba University, Saudi Arabia

Email: *rbaqees@taibahu.edu.sa*

Abstract

The research aims to conduct an objective study of the Quranic verses containing stories of women, to extract the reasons and motivations that prove the superiority of the divine message and the call of nature over the allure of desire, and to highlight the exemplary models in these stories. The research consists of two sections: the first provides a foundation for the research elements (divine message, call of nature, and the allure of desire), and the second presents a thematic study of the stories through examples found in the Qur'an. The second section includes nine subtopics cited from the Qur'an: "Would I give birth, when I am an old woman?" "had We not steadied her heart?" "My Lord! Build for me a house in Paradise near You," "And the male is not like the female," "I wish I had died before this," "She said, 'Come to me,'" "We cannot draw water until the shepherds depart," "They were under two of Our righteous servants," and "and his wife, the firewood carrier." The key finding is that there is a variation based on the strength or weakness of faith. Those with strong faith prioritized the divine message that did not conflict with sound nature and thus attained honor and the best reward in this world and the hereafter. In contrast, those who did not believe prioritized their desires over the divine message and perished, thus deserving punishment in both worlds.

Keywords: *Allure Of Desire , Call Of Nature , Divine Message , Qur'anic Stories , Women*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل الكتاب المبين هدى وبشرى للمتقين، من أخذ به فاز ونجا، ومن تركه خاب وخسر، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا، **أما بعد**:

وردت قصص في كتاب الله خاصة بالنساء فيها عِظات وعِبر، وبالنظر والتأمل في تلك القصص يتبين وجود نداء فطريّ لدى النساء، وداعي هوى طاغيًا على حياتهن، وأمر إلهيّ وخطاب شرعيّ؛ كان موافقًا للفطر أو مخالفًا لتلك الدواعي، وكيف كان معجزًا في دفع الهوى، والإتيان بما يخالفه، لوقوع تلك الأمور تحت مشيئة الله وقدره فكان تقديم الخطاب الشرعيّ من بعض النساء على نداء الفطرة لحِكم لا يعيها إلا من تبصّر في أحوال هؤلاء النسوة، ومنهن من قدمت داعي الهوى على الأمر الإلهيّ، فماذا كانت النتيجة؟، من هنا كان سبب اختياري لموضوع:

" **النساء في القرآن بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى**"

وقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب منها:

١- إبراز القدوات من هذه القصص خاصة بين فتيات الأمة.

٢- التدبر والتأمل والاستنباط من القصص القرآنيّ، واستخراج ما فيها من العظات والعبر، خاصة ما يخص النساء ويفيد في الدعوة إلى الله.

٣- بيان أحوال النساء في هذه القصص بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، وماذا قدّمن في تلك الأحوال وماذا خالفن.

أهداف البحث:

١- دراسة الآيات الواردة فيها القصص دراسة موضوعية.

٢- استخراج الأسباب والدوافع لتقديم خطاب الشرع ونداء الفطرة على دواع الهوى.

٣- تقديم دراسة علمية تطبيقية لنماذج نسائية تفيد المكتبة القرآنية.

الدراسات السابقة:

حظي موضوع النساء في القرآن الكريم بدراسات من أهمها:

١-المرأة في قصص القرآن: للدكتور أحمد الشرقاوي، دار السلام، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٢-خطاب التكليف للمرأة المسلمة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فاطمة عصمت زكريا، الناشر: دار الزمان بالمدينة المنورة.

٣-قصص النساء في القرآن الكريم، والدروس والعبر والأحكام المستفادة منها، الدكتور محمد ناصر الحميد، رسالة دكتوراه، في الجامعة الإسلامية، نوقشت عام ١٩٩٧م

وبالنظر في هذه المؤلفات تبين عدم الحديث عن موضوع البحث.

حدود البحث:

عرضت لتسع قصص من قصص النساء في القرآن الكريم، ابتدأت من سارة؛ زوج إبراهيم عليه السلام إلى امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وقد ظهرت فيها أحوال النساء بين عناصر الموضوع الثلاثة؛ خطاب الشرع، ونداء الفطرة، وداعي الهوى.

وقد درجت في هذا البحث على الخطوات التالية:

قدمت له **بمقدمة** أبرزت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته، والمنهج المتبع في البحث، والدراسات السابقة، وجعلتها في مبحثين وخاتمة كالتالي:

المبحث الأول: تأصيل عناصر البحث (خطاب الشرع، نداء الفطرة، داعي الهوى)، وفيه:

المطلب الأول: خطاب الشرع

المطلب الثاني: نداء الفطرة

المطلب الثالث: داعي الهوى

المبحث الثاني: دراسة قصص النساء في القرآن، وأحوالهن مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: أألدُ وأنا عجوز عقيم.

المطلب الثاني: ربطنا على قلبها.

المطلب الثالث: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة.

المطلب الرابع: وليس الذكر كالأنثى.

المطلب الخامس: يا ليتني مت قبل هذا.

المطلب السادس: قالت هيت لك.

المطلب السابع: لا نسقي حتى يصدر الرعاء.

المطلب الثامن: كانتا تحت عبدين.

المطلب التاسع: وامرأته حمالة الحطب.

ثم **الخاتمة**، وفيها أهم النتائج.

الفهارس: ثبت **المصادر والمراجع**.

منهج البحث:

جاءت الكتابة في هذا البحث على النحو الآتي:

١-سلكتُ في دراسة هذا الموضوع منهج التفسير الموضوعيّ لقصص النساء في القرآن وأحوالهن بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، واستجابتهن أو مخالفتهن لتلك الأمور.

٢-خصصتُ في هذا البحث دراسة كل قصة دراسة استقرائية استنباطية موضوعية.

وقد اتبعتُ الخطوات التالية في دراسة كل قصة:

١-اختيار عنوان للقصة مستوحًى من الآيات الخاصة بالقصة.

٢-اسم صاحبة القصة.

٣-التفسير العام للقصة.

٤-الهدايات المستنبطة من القصة المتعلقة بعناصر البحث؛ (خطاب الشرع، ونداء الفطرة، وداعي الهوى).

٥-إبراز وتقرير عناصر البحث في كل قصة.

٦-كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثمانيّ، وعزوها إلى سورها ورقم الآية.

٧-عزو الأحاديث النبوية إلى مصادرها، وما كان منها في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيتُ بتخريجها منه، وما كان في غيرها عزوته إلى بعض المصادر.

المبحث الأول

تأصيل عناصر البحث

(خطاب الشرع، نداء الفطرة، داعي الهوى)

القصص القرآنيّ ينبوع نستقي منه الحِكم والعظات والعبر، ومن هذه القصص ما كان خاصًّا بالنساء، وما احتوته من موضوعات خاصة بهن، ولقد تتبعت قصص النساء في القرآن الكريم، فجاء هذا البحث وسلّط الضوء على مواقفهن وأحوالهن في التعامل مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى.

المطلب الأول: خطاب الشرع

الخطاب في اللغة: (خ ط ب) هما أصلان؛ كلام بين اثنين، أو اختلاف لونين.

وخطب يخِطب خِطبة، أي: تكلم كلامًا مسموعًا إلى مستمعين، ومنه خاطب يخُاطب خطابا، أي: وجّه كلامًا مسموعًا أو مقروءًا إلى متلقين.

قال ابن فارس[(١)]: "الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابًا، والخطبة من ذلك، وفي النكاح الطلب أن يزوج، قال الله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ} [سورة البقرة:٢٣٥]، والخطبة: الكلام المخطوب به، ويقال اختطب القوم فلانًا، إذا دعوه إلى تزوج صاحبتهم، والخطب: الأمر يقع؛ وإنما سمِّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة، وأما الأصل الآخر فاختلاف لونين، قال الفراء: الخطباء: الأتان التي لها خط أسود على متنها"[(٢)].

والشرع في اللغة: (ش ر ع) أصل واحد، وشرع يشرع شرعًا، أي: فتح الشيء ووضع الأمر وسنّ الطريقة.

---

(١) أحمد بن فارس، اللغوي ولد سنة ٣٢٩هـ، كان إمامًا في علوم شتى، من مؤلفاته: مقاييس اللغة، ابن فارس، ، والمجمل، توفي٣٩٥هـ، بغية الوعاة، السيوطي ٣٥٢/١.

(٢) «مقاييس اللغة» مادة خ ط ب (٢/ ١٩٨).

قال ابن فارس:"الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء، واشتق من ذلك الشرعة في الدين والشريعة. قال الله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [سورة المائدة:٤٨]، وقال سبحانه:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ } [سورة الجاثية:١٨]، وقال الشاعر في شريعة الماء:

وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ هَمُّهَا ... وَأَنَّ الْبِيَاضَ مِنْ فَرَائِصِهَا دَامِ"[(١)].

تعريف خطاب الشرع:

هو الأمر الإلهيّ الصادر من الله جل في علاه، لعباده المؤمنين، بما يحقق عبوديتهم له عز وجل، ويحقق مصالح دنياهم وأخراهم، وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وخطاب الشرع نوعان:

خطاب الشرع الخبريّ؛ وامتثاله بالتصديق والقبول إثباتًا ونفيًا.

وخطاب الشرع الطلبيّ؛ وامتثاله باعتقاد حِل حلاله وحرمة حرامه، وامتثال الأمر والنهي فيه[(٢)] ويطلق خطاب الشرع ويراد به؛ خطاب الشارع وخطاب الشريعة.

وتطلق الشريعة على معنيين:

المعنى الأول: كل ما أنزله الله على نبيّ من أنبيائه، من العقائد والأحكام والأخلاق، كما في قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الجاثية:١٨]، وهو المعنى المراد في هذا البحث.

والمعنى الثاني: ما خص الله تعالى به كل نبيّ من الأحكام، قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [سورة المائدة:٤٨][(٣)].

---

(١) «مقاييس اللغة» مادة ش ر ع (٣/ ٢٦٢).

(٢) شرح ثلاثة الأصول، صالح العصيمي، ص٩.

(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ١١٦).

ولخطاب الشرع خصائص مهمة تتلخص فيما يلي:

- أنه خطاب موجه للعقل، فهو مناط التكليف، وفهم خطاب الشرع وتحقيق مقاصده كما أمر الله عز وجل.

- أنه خطاب محكم راعى حق الشارع عز وجل، وحفظ حق العبد في دينه ونفسه وعقله وعرضه وماله.

- أنه خطاب اتصف برعايته للإنسان وفطرته، فهو خطاب مقر بالفطرة وما جبل عليه العبد، من حب البقاء وحب المال والزوج والولد، وموافق للفطرة في عقائده وأحكامه، فكان الإسلام هو دين الفطرة، ومنظم للفطرة؛ ففتح للنفس الأبواب الصحيحة لتلبية حاجاتها وأغلق دونها الأبواب الخاطئة، ومزكٍ للفطرة وموجه لها إلى الأفضل والأطهر.

- أنه خطاب قد يخالف الفطرة أحيانًا ابتلاء وتمحيصًا ورفعة لعباده، كما في قصة أمر إبراهيم بذبح ابنه عليهما السلام ابتلاء ورفعة لهما.

المطلب الثاني: نداء الفطرة

النداء في اللغة: (ن ا د ى) نادى ينادي نداءً ومناداة، أي: طلب ودعا وأعلن وأظهر، والنداء هو الطلب والدعوة والإعلان.

والفطرة في اللغة: (ف ط ر) فطر يفطر فطرًا، أي: شق وخلق وابتدأ، ومنه الفطرة أي: الخلقة والطبع والجبلّة.

قال الجوهري[(١)]: "والفِطْرَةُ بالكسر: الخِلقةُ، والفَطْرُ أيضًا: الشقُّ، والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراعُ، قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطِرُ السماوات حتَّى أتاني أعرابيَّانِ يختصِمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، أي أنا ابتدأتها"[(٢)].

والفطرة في الشريعة: هي الخلقة والجبلة التي خلق الله الخلق عليها، والمهيأة

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر الفارابي، كان إمامًا في اللغة والأدب، صنف كتابًا في العروض، ومقدمة في النحو، والصحاح في اللغة، قيل: مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقيل في حدود الأربعمائة، «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/٧٨١).

لقبول الحق والدين ومحبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه.

وهذا المعنى هو أصل وخلاصة أقوال أهل العلم في تعريف الفطرة بأنها الإسلام أو الحق أو غيره من التعريفات المأخوذة من لوازم ومآلات تقوم على سلامة الفطرة[(١)].

تعريف نداء الفطرة:

طلب ودعوة العقل للنفس بما تقتضيه فطرتها؛ للأمور التي يتحقق بها مصالح العبد وغاياته وسلامته من الآفات والمفاسد، وما فيه فوزها وفلاحها، وطهارتها وزكاتها، وسموها ورفعتها.

والفطرة بمثابة دليل يدل على مزلّة الأقدام، وخطأ الأفهام، فإذا تعاون العقل مع الفطرة، أمكن للإنسان تحقيق التوافق مع خطاب الشريعة، والله هو الذي وهب الإنسان العقل، وهو الذي خلقه على الفطرة السليمة، فإذا تكاملا، عرفا الحق الذي ينبغي أن يُتبع، وعرفا الباطل الذي ينبغي أن يُجتنب، وإذا تعاضد النقل والعقل والفطرة حصلت المطابقة، لذلك كانت الشرائع رغم تباينها؛ متفقة ومركوزًا حسنها في العقول، ثم كانت بعثة الرسل تحقيقًا للعلاقة التكاملية بين هذه الأصول الثلاثة؛ حتى يصيب الإنسان طريق الحق والصواب.

قال ابن القيم[(٢)]: "ثم بعث الله رسله بالأمر بما أثبت في الفطر حُسْنه وكماله، والنهي عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه، فطابقت الشريعة المنزَّلة للفطرة المكمِّلة مطابقة التفصيل لجملته، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان؛ حيّ على الفلاح،

---

(١) انظر: التمهيد – ابن عبد البر (١٨/ ٦٠ ط المغربية)، تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٥).

(٢) شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قَيِّم الجوزية، ولد عام ٦٩١هـ، لازم شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه، وامتحن وأوذي وحبس معه، له تصانيف عظيمة منها: "زاد المعاد، و"التبيان في أقسام القرآن"، وغيرها، توفي عام ٧٥١ هـ، بغية الوعاة (٦٢/١)، طبقات المفسرين، السيوطي(٢/ ٩٤-٩٦).

وصدّعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلَم الإباء، كما صدّع الليل ضوء الصباح، وقبِل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة، لما كان الشاهد غير متهم ولا معرّض للجراح"[(١)].

قال السعدي[(٢)]: "وهذا الأمر الذي أمرناك به هو {فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا} [سورة الروم:٣٠]، ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع اللّه في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارضٍ عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ×: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[(٣)] {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ}، أي: لا أحد يبدل خلق اللّه؛ فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه اللّه"[(٤)].

ومما سبق يظهر: لنا ما يلي:

- أن نداء الفطرة هو نداء وجدانيّ، يظهر فيه توافق النفس مع العقل، وما ينتج من ذلك من آثار وأقوال وأفعال.
- أن نداء الفطرة يحقق للعبد غاياته ومصالحة وسلامته من الآفات والمفاسد.
- نداء الفطرة وخطاب الشرع متسقان ومتوافقان، ينتج عنه الانقياد لخطاب الشرع

---

(١) مفتاح دار السعادة، عطاءات العلم، ٢-٨٠٠.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد، ولد في عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها (سنة ١٣٥٨)، له نحو ٣٠ كتابًا، منها؛ كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن، و القواعد الحسان في تفسير القرآن، وغيرها. توفي بعنيزة سنة ١٣٧٦هـ، الأعلام، الزركلي،٣/٣٤٠.

(٣)أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الإيمان، باب ما قيل في أولاد المشركين،(١/٤٦٥ح١٣١٩) ، ومسلم في صحيحه باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٤٧ح٢٦٥٨).

(٤) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٤١).

وعدم مخالفته ومصادمته.

المطلب الثالث: داعي الهوى

الداعي في اللغة: (د ع و) دعا يدعو دعاء ودعوة، أي: طلب ونادى وحث، والدعوة هي الطلب والنداء والحث، ومنه الداعي وهو الطالب والمنادي.

قال ابن فارس: "(دعو) الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول: دعوت أدعو دعاء، والدعوة إلى الطعام بالفتح، والدعوة في النسب بالكسر، قال أبو عبيدة: يقال في النسب دعوة، وفي الطعام دعوة"[(١)].

والهوى في اللغة: (هـ و ي) هوى يهوي هويا، أي: نزل وسقط، ومال وحنّ، والهوى النزول والسقوط والميل والحنو، والهوى ميل النفس إلى محبّاتها وشهواتها.

قال ابن فارس: "الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلوٍّ وسقوطٍ، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوّه، قالوا: وكل خال هواء، قال الله تعالى: { وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ} [سورة إبراهيم:٤٣]، أي خالية لا تعي شيئا"[(٢)].

والهوى في الشريعة: هو محبة النفس وميلها مطلقًا إلى ما تحب من الخير والشر، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره.

قال ابن رجب[(٣)]: "قد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقًا، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه"[(٤)].

---

(١) «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٧٩).

(٢) مقاييس اللغة (٦/ ١٥).

(٣) الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، وُلد في بغداد سنة ٧٠٦، صنف "شرح الترمذي" و"شرح علل الترمذي" و"طبقات الحنابلة" وغيرها، مات في سنة ٧٩٥، «ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي» (ص٢٤٣)، «طبقات المفسرين للأدنه وي» (ص٣٥٣).

(٤) جامع العلوم والحكم، ت الأرنؤوط (٢/ ٣٩٩).

وقال ابن الجوزي[١]: "اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل وإلى المشرب ما شرب وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستحلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي"[٢].

تعريف داعي الهوى:

هو طلب وحث النفس إلى ما تهواه وتميل إليه مما يخالف الشرع، وهو الهوى المذموم، وإذا ذكر الهوى مطلقًا أو ذكر ذمه فإنما يراد به الهوى المذموم لأنه الغالب – وهو المعنى المراد في البحث– وإن مالت إلى ما يوافق الشرع فهو الهوى الممدوح [٣].

قال ابن الجوزي: "لا يصلح ذم الهوى على الإطلاق وإنما يذم المُفرَط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب من موافِق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع؛ أطلق ذم الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر"[٤].

واتباع الهوى المذموم قد يكون في أمور الدين وقد يكون في شهوات الدنيا، أو بعبارة أخرى قد يكون في الشبهات وقد يكون في الشهوات، وقد يكون في أمر مشترك بينهما، وهوى الشبهة قد يوصل صاحبه إلى حد الابتداع في الدين وهو المراد في عامة كلام السلف حينما يتحدثون عن أهل الأهواء، فإنما يريدون بذلك أهل البدع، وأما هوى الشهوة فقد يكون في الأمور المباحة كالأكل والشرب والنكاح والملبس، وقد يكون في الأمور المحرمة كالزنا والخمر، ومرتكب هذه المحرمات يسمى فاجرًا وفاسقًا وعاصيًا[٥].

---

(١) جمال الدين أبو الفرج، المشهور بابن الجوزي، أحد أفراد العلماء، برز في كثير من العلوم؛ منها كتابه في التفسير " زاد المسير " وله " جامع المسانيد" و " العلل المتناهية في الأحاديث الواهية " وغيرها، ولد سنة ٥١١هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ، «البداية والنهاية» (١٦/ ٧٠٧ ت التركي) «طبقات المفسرين للداوودي» (١/ ٢٧٧).

(٢) ذم الهوى (ص: ١٢).

(٣) اتباع الهوى، د. سليمان الغصن، ص٨، دار العاصمة.

(٤) ذم الهوى (ص: ١٢).

(٥) اتباع الهوى، د. سليمان الغصن، ص٩، دار العاصمة.

العلاقة بين العقل وبين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى:

من خلال البحث في هذا الموضوع تبين وجود علاقة مطردة بين العقل وعناصر البحث وهي كالتالي:

- العقل مناط ومحل تحقيق خطاب الشرع وحصول نداء الفطرة ووقوع داعي الهوى.
- العقل الصريح أداة ووسيلة فهم وامتثال خطاب الشرع، فهو خادم له وممتثل لأوامره ونواهيه.
- العقل الصريح منادٍ للفطرة، وواعظ للنفس بوقوفها على فطرتها.
- العقل أداة النفس في تحقيق أهوائها وشهواته وشبهاتها، وذلك بعد أن يصبح العقل أسيرًا للنفس محكومًا بأهوائها.

قواعد مستنبطة من العلاقة بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى:

من خلال تعريف مفاهيم البحث الثلاثة ودراسة حقيقتها، ظهرت لنا قواعد تضبط العلاقة بينها، وأهمها:

- خطاب الشرع أمر إلهيّ غايته تعبيد الناس لرب العالمين، وهو خطاب موجه للعقل، فهو مناط التكليف، وفهم خطاب الشرع وتحقيق مقاصده كما أمر الله.
- خطاب الشرع؛ خطاب مقرّ بالفطرة وموافق ومنظم ومزكٍ لها، وهذا من لطف الله ورحمته بعباده، وقد يخالف الفطرة أحيانًا؛ ابتلاءً وتمحيصًا ورفعة للمخاطب به، وهذا من حكمة الله في شرعه وخلقه، ومن فضله وعدله في عباده.
- نداء الفطرة نداء وجداني، يظهر فيه توافق النفس مع العقل، وما ينتج عن ذلك من آثار وأقوال وأفعال، ومخالفة النفس للعقل ليس نداءً فطريًّا؛ بل هوى محضًا متبعًا.
- نداء الفطرة يحقق للعبد غاياته ومصالحه وسلامته من الآفات والمفاسد.
- داعي الهوى هو ميل النفس إلى ملذاتها وشهواتها بطغيان، وبمخالفة الفطرة والعقل، وبردٍّ لخطاب الشرع.
- الاستجابة لداعي الهوى حالة نفسية ظاهرة وبيّنة في فسادها وخطئِها وآثارها.

وسيتم دراسة قصص النساء في القرآن من خلال هذه القواعد، واستنباط صور وحالات التوافق والاختلاف بين تلك المفاهيم، وربطها بما يناسبها في كل قصة من تلك القصص.

المبحث الثاني

دراسة قصص النساء في القرآن

وأحوالهن مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى

المطلب الأول: أألد وأنا عجوز عقيم

سارة زوج إبراهيم الخليل عليه السلام:

هي سارة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم عليه السلام(١).

إيمان وأمل (أألد وأنا عجوز عقيم):

قال تعالى: {وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾} [سورة هود:٦٩-٧٣].

وقال جل ثناؤه في موضع آخر: {هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾} [سورة الذاريات:٢٤-٣٠].

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٥/ ٣٨٩) تفسير القرطبي (٩/ ٦٦).

تفسير الآيات: يخبر تعالى رسوله ﷺ خبر الملائكة الكرام الذين جاؤوا بالبشرى لإبراهيم عليه السلام وزوجه، وكيف استقبلهم إبراهيم؟ إذ دخلوا عليه وألقوا التحية فقالوا: سلامًا، فرد عليهم السلام بالسلام، وجاءهم بعجل مشويّ ليأكلوا منه، وكانت زوجته سارة تقوم على مساعدته في إكرام ضيفه، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه توجس منهم! فأزالوا خوفه، وبشروه بغلام عليم، وبادروه ببيان مهمتهم بإهلاك قوم لوط، فضحكت سارة متعجبة من قوم لوط ومخالفتهم لشرع الله وللفطرة السوية، ولما بشرت الملائكة سارة بالبشارة التي أذهلتها! أنها ستلد ولدًا (إسحاق) وهذا الولد سيكون له ولد أيضًا (يعقوب)، فجاءت في صيحة فصكت وجهها، وقالت في عجب: أألد وأنا عجوز عقيم؟! امرأة قد بلغت من العمر مبلغه ومن في مثلها لا يمكن في منظور العقل والعادة أن يكون لها ولد، وزوجها أيضا رجل كبير ويستحيل عقلًا أن يكون لهما ولد في ظل هذه الموانع! فردت عليها الملائكة: أتعجبين من أمر الله وقضائه؟ رحمة الله وبركاته حلت عليكم أهل البيت، وقدرته فاقت كل قدرة فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، إنه سبحانه وتعالى حميد الصفات والأفعال، ذو مجد وعظمة، إنه هو الحكيم العليم.

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال سارة عليها السلام مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾،

قال ابن جرير[1]: "وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بالصواب؛ قول من قال: معنى قوله: «فضحكت»: فعجبت من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه. وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم: لا تخف إنا أرسلنا

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة٢٢٤هـ، روى الكثير من الأحاديث بسندها، ورحل إلى الآفاق في طلب الحديث، وله " التاريخ " الحافل، و " التفسير " الكامل، وغيرهما من المصنفات النافعة في الأصول والفروع، توفي سنة ٣١٠هـ، «البداية والنهاية» (١٤/ ٨٤٦ ت التركي)، «طبقات المفسرين للداوودي» (٢/ ١١٢).

إلى قوم لوط.[1].

ودل ضحك سارة على تعظيمها لخطاب الشرع ولدين الله وتوحيده، فتبسمت وتعجبت من قوم لوط، كيف كفروا بالله وأعرضوا عن شريعته وخالفوا أمره، وقد بعث الله فيهم لوطًا عليه السلام وظهرت لهم البينات.

- في قوله تعالى: (فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا)، موقف يبين شعور المرأة الطبيعيّ والذي تميل له بفطرتها وطبيعتها التي جبلها الله عليها من حب الولد، حيث أقبلت في صيحة غير معهودة فصكت وجهها بأصابعها تعجبًا وفرحًا، وهذا شعور طبيعيّ في مثل هذه الحالة العجيبة، وليس في هذا منافاة لخطاب الشرع في تحريم لطم الوجه تسخطًا وجزعًا، فليس هذا كهذا.

- في قوله تعالى: (قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ)، تصوير لحال تلك المرأة التي بلغت من العمر مبلغًا، ومن في مثلها لا يمكن في منظور الفطر والعادات أن يكون لها ولد، وزوجها أيضًا رجل كبير ويستحيل عقلًا أن يكون لهما ولد في ظل هذه الموانع! وإن قطعت معه أمنيتها بإنجاب الولد، فقالت في استفهام ويقين بما عند الله: (ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا)، أي: أألد وكلانا على حالة منافية لوقوع مثل هذا؟! فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلًا فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وذكرت مانعًا ثالثًا خاصًّا بزوجها؛ وهذا بعلي شيخ كبير، قدمت بيان حالها على بيان حال زوجها إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر؛ إذ قد يولد للشيخ الكبير ولد، أما المرأة العجوز التي داؤها العقم لا يمكن أن يولد لها ولد، ولأن البشارة متوجهة إليها بالتصريح[2].

---

(١) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر» (١٢/ ٤٧٨)

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٤/ ٢٢٦)، تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨١٠).

استفهام سارة تعجبًا وفرحًا فطريًّا، لا استنكارًا واستبعادًا لحكم الله وأمره، فظهر في الموقف فطرتها وفرحها وتعظيمها لخطاب الشرع فلم تستبعد حدوث مثل هذا، ولذا جاء رد الملائكة لها بمثل تعجبها، وأن هذا أمر إلهيّ، قد قدره الله عليك وعلى أهل هذا البيت.

وهنا تجلى تعظيم سارة لخطاب الشرع بإيمانها ويقينها بقدرة الله وإرادته على ما يريده عندما ذكرتها الملائكة بذلك، فوافق يقينها بأمر الله فطرتها وفرحها بالولد، وخالفت بتعظيم أمر الله عادة وفطرة عدم إنجاب المرأة العجوز للولد، فكان جزاؤها أن بشرت بالولد وبولد الولد.

ومما تقدم يتبين التوافق عند سارة؛ بين تعظيمها لخطاب الشرع، وتعاملها بفطرتها، وسلامتها من أهواء نفسها، في موقفها وتعجبها واستنكارها لكفر قوم لوط وقد جاءتهم البينات من ربهم، وفي موقفها الفطري الموافق لخطاب الشرع وفرحتها به؛ بتحقق ما تحب وتريد من الولد، وفي موقفها الفطري المخالف لخطاب الشرع وتقديمه عليه؛ بأن الشيخ الكبير والمرأة العجوز لا يأتي لهما ولد، ولكن الله أراد ذلك وقدره، فعظمت خطاب الشرع وآمنت به.

المطلب الثاني: ربطنا على قلبها

أم موسى:

قال ابن عاشور[(١)]: "لم يعرف اسمها في كتب اليهود، وذكر المفسرون لها أسماء لا يوثق بصحتها"[(٢)].

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، ولد عام ١٢٩٦ هـ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، من مصنفاته؛ مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام والتحرير والتنوير ، ت: ١٣٩٣ هـ . الأعلام، للزركلي، (٦/ ١٧٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٧٣).

تسليم وإيمان (لولا أن ربطنا على قلبها):

قال تعالى: {وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ * وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣}[سورة القصص:٧-١٣].

وقال في موضع آخر: {وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١} [سورة طه:٣٧-٤١].

تفسير الآيات:

بين الله عز وجل أنه أوحى إلى أم موسى أن أرضعي موسى، فإذا خفت عليه من فرعون وجنده، فضعيه في تابوت وألقيه في نهر النيل، ولا تخافي عليه من الغرق أو غيره، ولا تحزني على فراقه؛ إنا رادّوه إليك، وجاعلوه من رسل الله، فأخذ آل فرعون موسى؛ ليكون عدوًّا لهم وحزنًا بزوال ملكهم على يديه، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا عصاة آثمين، وقالت امرأة فرعون: هذا الطفل سرور لي ولك يا فرعون، لا تقتلوه؛ لعله ينفعنا أو نجعله لنا ولدًا، وهم لا يعلمون أن هلاكهم سيكون على يديْ هذا الطفل!

ثم صور عز وجل الحالة النفسية لهذه الأم فقال: وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا من كل شيء إلا من أمر موسى! وقد قاربت أن تظهر للناس ما تكتمه في قلبها من شأنه،

لولا أن ثبتنا قلبها بالإيمان والصبر لتكون من المؤمنين بوعد الله، ثم يبين الله تعالى التصرف الصحيح منها بعد ذلك، فقالت: لأخته اذهبي فتتبعي أثر موسى؛ لتعلمي خبره، فذهبت أخته فرأته من بعيد، وهم لا يعلمون أنها أخته، وأنها تراقبه، فقالت لآل فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يضمون هذا الطفل، ويقومون بحضانته وإرضاعه، وهم مخلصون في ذلك، مشفقون عليه؟ وهذا من ظاهر عناية الله وحفظه لموسى والمنة عليه، فرددنا موسى إلى أمه لكي تسر به، ولا تحزن على فراقه، ولتعلم أن ما وعدها الله به من رد موسى إليها حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال أم موسى مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله تعالى: - {وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ}

قال السعديّ: "إن الله يبتلي عبده ويقدر عليه بعض المشاق، ليختبر إيمانه وينيله سرورا، أو يدفع عنه شرًّا أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وتزداد به غبطة وسرورًا، لم يكن يتحقق لها لو بقي عندها واكتشف أمره"(١).

وصف الله حال أم موسى مع طفلها، كحال كل أمّ من حب طفلها والتعلق به، والعناية به والخوف عليه، وحالها مع خطاب الشرع وتصديقه وامتثاله، لما جاءها أمر الله بأن تلقيه في اليم إذا خافت عليه! ومخالفة هذا الأمر لفطرة الأم المشفقة، وما يمكن تصوره لحالة أم أمرت بذلك! لكنها عظمت خطاب الشرع واستجابت له وخالفت فطرتها وسلمت من هوى نفسها، فألقت برضيعها في اليم، انقيادًا لأمر الله، وتصديقًا بوعده؛ أن الله سيعيده إليها، وتقر عينها به، ولو خالف هذا فطرتها؛ أن إلقاء رضيع في البحر

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦١٨).

مصيره الموت، وقد أنجز الله وعده لأم موسى فرد إليها ولدها وقرت به عينها وذهب حزنها، وازدادت إيمانًا ويقينًا بربها.

- في قوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ}، يبين الله حال الإنسان قبل وبعد نزول البلاء به، فهذه أم موسى قبل نزول البلاء كانت موقنة وممتثلة لأمر ربها ومطمئنة على ولدها، ولكنها أصبحت بعدما فارقته قلقة لا تفكر في شيء سوى ابنها، هنا ظهرت فطرتها، والواقع أن الإنسان له حال قبل نزول البلاء، وله حال بعد نزوله، وفي هذا دليل على أن ما تقتضيه الطبيعة البشرية لا يؤاخذ به المرء، لأنه لا يكون في هذه الحالة مخالفٌ لواجب ولا مرتكبٌ لمحرم، ووجه ذلك: أن فؤاد أم موسى كان ينبغي ألا يكون فارغًا من ذكر الله عز وجل ومن الدار الآخرة! لكنه أصبح فارغًا، ليس فيه شيء أبدًا لذكره سوى ذكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية؛ لأن الأمور العظيمة التي تنزل بالمرء تنسيه كل شيء[1].

وإن من أعظم نعم الله على عبده، وأعظم معونة للعبد على أموره؛ تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه؛ فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال، فهو مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله؛ ولا سيما عند نزول الحوادث[2].

وفي هذا إشارة إلى حال أم موسى وظهور فطرتها السوية التي لم تتجاوزها إلى خوف شديد على ابنها، وجزع مخالف لأمر الله برده، فسلمت من اتباع هوى نفسها فلم تكشف خبر ابنها؛ وقد خلا قلبها من ذكر ربها، ولم يبق فيه سوى ذكر موسى؛ شفقة عليه وانشغالًا به، وهذا أمر مباح لا تؤاخذ عليه الشريعة، ولو ترتب عليه نسيان ذكر الله المستحب، ولذلك لم يعاتب الله أم موسى؛ بل منّ عليها وربط على قلبها وثبتها،

(١) «تفسير العثيمين: القصص» (ص٤٨)

(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦١٨)

فكان هذا ثوابًا لها على تعظيمها لخطاب الشرع وانقيادها لأمره وتقديمه على نداء فطرتها، وسلامتها من اتباع الهوى.

- في قوله تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

قال السعدي: "يؤخذ منها أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله؛ فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه"(١).

وقد دلت هذه الآية على أنه مع رسوخ خطاب الشرع في نفس أم موسى ويقينها التام بحصوله، ورد ابنها إليها، إلا أن فطرتها السوية قادتها إلى أمر ابنتها بالبحث عن أخيها وقص أخباره حتى تكون على علم بأحوال ابنها أولًا بأول، حتى يردها الله إليها، وفي هذا إشارة إلى توافق خطاب الشرع مع الفطرة السوية.

ومما تقدم يظهر في قصة أم موسى، تعظيمها لخطاب الشرع، وإيمانها ويقنيها بوعد الله لها، وتثبيته إياها بالصبر، وقدمته على فطرتها فألقت فلذة كبدها في اليم، وكتمت أمرها حتى لا ينكشف أمره إلى أن يتحقق الوعد، كما أن هذا التعظيم لخطاب الشرع لا يتنافى مع فطرتها في بذل الأسباب من بحث وتحري خبر ابنها، فكانت الثمرة ظفرها برجوع ابنها وتربيته في بيت عدوه { فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ }.

المطلب الثالث: ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة

آسية بنت مزاحم (امرأة فرعون):

كان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم، وكانت من خيار النساء، وكانت أمًّا للمساكين؛ ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم. (٢)

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦١٩)

(٢) «تفسير البغوي - طيبة» (٦/ ١٩٣).

كمال وإيمان (ربّ ابن لي عندك بيتا في الجنة):

قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩} [سورة القصص:٧-٩].

وقال في موضع ثاني: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١} [سورة التحريم:١١].

تفسير الآيات:

جاء ذكر آسية في معرض قصة موسى عليه السلام وما حصل له في صغره من إلقاء أمه له في اليم، ومن تسخير الله تبارك وتعالى آسية لنجاته عليه السلام، فبعد أن ذكر الله حال أم موسى والأمر الإلهي لها بإلقائه في اليم، بين تعالى التقاط آل فرعون لموسى، وأنه حنَّن عليه امرأة فرعون آسية بنت مزاحم وقالت: هذا الولد (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ)، أي: أبقه لنا، لِتقرَّ به أعيننا، ونسترُّ به في حياتنا، (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقِّيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه، ونجله، فقدَّر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبًّا شديدًا، لم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها، ثم جعلها الله مثلًا للذين آمنوا، حيث جاء ذكرها في معرض بيان حدود العلاقة بين المؤمن والكافر، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا مع قيامه بما أوجب الله عليه، فهذه آسية وصفها الله بالإيمان والتضرع له، وسؤالها ربها أجل

المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: ((كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء، إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام[1])).[2]

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله تعالى: {وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا}، يستنبط من هذه الآية أن الإنسان يستعمل الأساليب التي تحقق له المقصود؛ فإن هذا القول من آسية سواء كانت تتوقع ذلك أو لا تتوقعه، لا بد أن يكون سببًا في موافقة فرعون لما بلغه، فقد روي أن فرعون لا يولد له ولد، وكانت آسية امرأة جميلة ويخشى فرعون أن تفارقه بسبب الولد، ابتدأت بنفسها قرة عين لي قبل ذكر فرعون؛ إدلالًا عليه لمكانتها عنده، أرادت أن تبتدره بذلك حتى لا يصدر عنه الأمر بقتل الطفل.

وذكرت آسية (قرة العين) [3]، قال ابن عاشور: "وهي كناية عن السرور، وهذا أمر فطري يسعى له كل إنسان بما يكون حوله من مال وبنين، فحكى القرآن ما في لغة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب قول الله تعالى {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون}» (٤/ ١٥٨ حديث رقم:٣٤١١، ط السلطانية)، ومسلم في صحيحه، باب فضائل خديجة حديث رقم٢٤٣١ (٤/ ١٨٨٧ ت عبد الباقي).

(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦١٢ و٨٧٥).

(٣) وهي كناية ناشئة عن ضدها، وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن؛ فلما كني عن الحزن بسخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه، أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية، فقالوا: قرة عين، وأقر الله عينه. «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٧٨).

امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرة الحاصلة للنفس بهذا الوصف، والمسرة المعنية هنا هي المسرة الحاصلة من مرأى محاسن هذا الطفل"[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما [٢]: "لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله، ولكنه أبى؛ للشقاء الذي كتبه الله عليه"[٣].

- في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، ما زالت آسية تبرر وتبين العلة من طلبها، وهذا نابع مما تكنه في قلبها من حب وشفقة فطرية على هذا الطفل الذي لا تعرفه؛ لكنه حرك في قلبها مشاعر الأمومة، فقالت معللة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي يكون لنا جانبًا ننتفع به منه، فجاء قولها في موقع العلة لمضمون جملة لا تقتلوه؛ فاتصالها بها كاتصال جملة قرة عين لي ولك بها، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعيّ عن القتل -وهو وازع المحبة- هو المقدمة؛ لأنه أشد تعلقًا بالنفس؛ فهو يشبه المعلوم البديهي، وجعل الوازع العقلي بعد النهي علة؛ لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعيّ، فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه [٤].

في هذا المشهد تجلت فطرة آسية لحب الولد حتى ولو كان ولد غيرها لأنها لم يكن لها ولد، فطمّعت فرعون أن يكون قرة عين فلا يقتله وأن يكون نفعًا لهما، حتى تهنأ بهذا الولد وتأنس به ويشبع غريزة الأمومة عندها، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾، ونشأ موسى وترعرع في قصر فرعون، ولما بلغ أشده وكان منه ما كان من حادثة قتل القبطي، وفراره من مصر، وتوجهه إلى مدين، والتقائه بالرجل الصالح، وتزوجه من

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٧٨)

(٢) عبد الله بن عباس، ابن عم النبي ﷺ ، حبر القرآن وترجمانه، نشأ في بدء عصر النبوّة، فلازم رسول الله ﷺ ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وأخذه عنه جمع من التابعين، وتوفي ٦٨هـ، الأعلام، الزركلي (٤/ ٩٥).

(٣) تفسير البغوي - طيبة (٦/ ١٩٣).

(٤) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٧٩).

ابنته، وعودته إلى مصر، وفي طريق عودته اختاره الله واصطفاه بكلامه وبرسالته إلى فرعون وملئه، وجاء موسى عليه السلام فرعون بالآيات الواضحة، فكذب وعصى، ودعوته لمناظرة السحرة الذين جمعوا من كل مكان لميقات يوم معلوم لإبطال سحر موسى، واجتمع الناس يوم الزينة، ودارت المحاورة فيما بينهم وأظهر موسى الآيات التي أيدها الله بها فخر السحرة سجّدًا لله { قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾} [سورة طه:٧٠]" [(١)]، وقال تعالى: {فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ } [سورة يونس:٨٣]، فكانت آسية ممن آمن بموسى وصدق به [(٢)].

وهذا مشهد لأحداث قصة موسى، بين رعايتها له طفلًا، ودعائها لربها أن يبني لها بيتا عنده، مرّ بأكثر من أربعين سنة؛ من أحداثه إيمان آسية بموسى عليه السلام وتصديقها بما جاء به وتتبع أخباره، ولم يرد لآسية ذكر فيها، ولم يذكر خبر إيمانها بنصه، وإنما دل عليه دعاؤها {إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ} فيما بعد، ولعل في هذا إشارة لما ذكره المفسرون أن آسية أخفت إيمانها، ولم تعلن به.

وهذا موقف عظيم؛ تجلى فيه تعظيم آسية لخطاب الشرع وتسليمها وانقيادها له، واستجابتها لنداء فطرتها؛ أن الله هو المستحق للعبادة دون سواه.

– في قوله تعالى: {إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ}، قدمت آسية أعلى صور تعظيم خطاب الشرع، فقدمته على نداء الفطرة، ولا يكون هذا الأمر إلا من قوي الإيمان، فوصفها الله بذلك، وجعلها مثلًا للذين آمنوا، واتبعت موسى عليه السلام، وتوكلت على الله ولجأت إليه بالدعاء، ولكن ليس كأي دعاء، هي تخلت عن الزوج وعن القصر، واختارت أفضل مكان وأعظم جوار، فاختارت جوار الرحمن، ولم تخف فرعون ولم تأبه لوعيده وتهديده، بل طلبت النجاة منه ومن عمله ومن عمل قومه

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٥/ ١٦٣).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٥/ ١٦٣)، تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٧/ ٢٨٩)، تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ١٢١)، فسير القرطبي (٨/ ٣٦٩). تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٣٦) تفسير ابن كثير، ت سلامة (٤/ ٢٨٧)

الظالمين. ودعاء آسية جملة مليئة بالدلائل والإشارات، وفيه تعظيم لخطاب الشرع، فقد دعت ربها أن يبني لها عنده بيتا في الجنة؛ بل وفي أعلى الجنة، وانصرفت عن نداء الفطرة، الذي ترغب به كل امرأة وهو التلذذ والتنعم بما حولها من ملك وقصور ورفاهية، وصغر في عينها نداء فطري عقلي آخر؛ ألا وهو الخوف من فتنة فرعون لها وتعذيبه إياها، لتعود عن ايمانها، فدعت ربها أن ينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين، ولم تلتفت لأهواء نفسها ورغباتها، وصغر في عينها وقلبها أبّهة الملك ونعيم القصور ورغد العيش، فانصرفت بقلبها عن نداء الفطرة؛ بحب هذه الأمور والميل لها، إلى نداء فطري آخر هو موافق لخطاب الشرع وداعٍ إليه وهو الإيمان بالله، فاستجاب الله دعاءها وكانت من أكمل نساء العالمين دينًا وإيمانًا.

قال ابن حجر: "ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه وكانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت قرة عين لي" [(١)].

ومما تقدم يتبين أن الإيمان إذا وقر في القلب كان سببًا في سعادته، ولا تزاحمه ملذات الدنيا من ملك وجاه، فهذه آسيا قدمت خطاب الشرع، على فطرتها وهوى النفس من حب القصور والعيش في رفاهية والزوج وكل ما تتمناه المرأة، فكانت من أكمل النساء.

المطلب الرابع: وليس الذكر كالأنثى

امرأة عمران:

حنة بنت فاقوذ بن قتيل، من بني إسرائيل، زوجها: عمران بن ياشهم بن آمون ابن منشا، من ذرية سليمان بن داوود عليهم السلام، كانت امرأة عجوزًا عاقرًا لا تلد، فجعلت تغبط النساء لأولادهن، فدعت ربها [(٢)] ، وكلها إيمان وثقة بوعد الله.

صدق الإيمان بالله ووعده:

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٤٨).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٣٣١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٣)

قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾} [سورة آل عمران:٣٣-٣٧].

تفسير الآيات:

يخبر الله تبارك وتعالى أنه اجتبى من خلقه واختار من عباده أفرادًا وأسرًا، امتن عليهم بفضله، وأخلصهم لعبادته، فاجتبى آدم ونوحًا عليهما السلام فردين، واختار إبراهيم وعمران وذريتهما أسرتين، فكان هؤلاء هم صفوة خلقه من العالمين، وخيرة عباده في الأولين والآخرين، وجعل الصلاح والتوفيق متسلسلًا في ذرياتهم؛ فالله تعالى على علم تام بمن يستحق الاصطفاء والاختيار من عباده؛ فهو السميع العليم، ثم ذكر نبأ امرأة عمران؛ إذ قالت: يا رب، إني أوجبت على نفسي أن أجعل ما في بطني مفرغًا لعبادتك، حبيسًا على خدمة بيت المقدس، فتقبل مني يا رب، ما نذرت لك، إنك أنت السميع لقولي ودعائي، المستجيب له، العليم بنيتي وقصدي، فلما ولدت إذا بالمولودة أنثى، فاعتذرت إلى ربها من ذلك؛ لأنها كانت ترجو أن يكون مولودها ذكرًا؛ لأنه أقدر على الخدمة وملازمة مكان العبادة من الأنثى، فقالت: (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ) أي: وليس الذكر كالأنثى في القوة والجلد على خدمة بيت المقدس، بالإضافة إلى ما يعتري الأنثى من الحيض، ثم أخبرت أنها سمتها مريم[(١)] وطلبت من الله أن يعيذها هي وذريتها من الشيطان الرجيم، فقالت: وإني أجيرها وأولادها؛ أي: عيسى عليه السلام، بك وحدك من

(١) أي: تعني العابدة، ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقًا لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٢/ ٢٢٣)

الشيطان المبعد المطرود، وقد استجاب الله تعالى لها، روي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إياه، إلا مريم وابنها)) [(١)] ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: (وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) [(٢)]، فاستجاب الله دعوتها، وقبل نذرها قبولًا حسنًا، ورضي نذرها وإن كان أنثى، فيسرها لليسرى، وسلك بها طريق السعداء، وأنشأها نشأة حسنة في بدنها، وخلقتها، ودينها، وأخلاقها[(٣)] .

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال امرأة عمران عليها السلام، مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله تعالى: {إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا}، كل امرأة بفطرتها تحن إلى الولد، مهما بلغت من العمر، وهذه امرأة عمران تحركت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها، وتهبه هي لخدمة بيت الله، حبيسًا مفرغًا للعبادة، لا تنتفع به، وهذا النذر كان في شريعة من سبق؛ التحرير للكنائس يكون في الذكور خاصة، وكان فرضًا على الأبناء التزام ذلك.

ومما روي في ذلك: "كان سبب نذر حنة لأنها كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائرًا يزق فرخًا له فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولدًا فحملت بمريم وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها جنينًا جعلته نذيرة لله، أن يخدم الكنيسة لا ينتفع به في شيء من أمر الدنيا، وقال مجاهد: مُحَرَّرًا

---

(١)صحيح البخاري» (٤/ ١٦٥٥ ت البغا): أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وإني أعيذها بك) ٤/ ١٦٥٥، حديث رقم: ٤٢٧٤، ومسلم في صحيحه باب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام،٤/ ١٨٣٨ حديث ٢٣٦٦.

(٢) رواه البخاري (٣٤٣١).

(٣) انظر: «تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر» (٥/ ٣٣٧)، «تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٦٩)، «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٢/ ٢٢٥)

معناه خادمًا للكنيسة وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفًا في الذكور خاصة، وكان فرضًا على الأبناء التزام ذلك، فقالت (ما فِي بَطْنِي) ولم تنص على ذكورته لمكان الإشكال، ولكنها جزمت الدعوة رجاء منها أن يكون ذكرًا، وتقبل الشيء وقبوله أخذه، حيث يتصور الأخذ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها: (فَتَقَبَّلْ مِنِّي) أي: ارض عني في ذلك واجعله فعلًا مقبولًا مجازًى به"[(١)].

في هذا المشهد تجلت فطرة المرأة مهما بلغت من العمر، فهي تحن للولد منذ صغرها إلى أن تتزوج، فإذا تزوجت كانت عوامل الإنجاب أكثر تحققًا إلا أن يشاء الله، وحمنة كانت ممن منع عنها الحمل في صغرها، فرضيت بأمر ربها، ولكن لم يقطع يقينها بوعد الله لعباده الصالحين، فدعت ربها بإيمان ويقين، فاستجاب لها ربها وحملت، وهذا لا تعارض فيه بين نداء الفطرة وخطاب الشرع.

- في قوله تعالى: { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا }، فيه مناسبة بديعة؛ إذ التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب، مع الإضافة إلى ضميرها، أنسب لإجابة الدعاء، وتأكيد الجملة بـ(إن)؛ لإبراز وفور الرغبة في مضمونها، وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به، ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسب من أسمائه وصفاته، وتأكيدًا الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونه[(٢)] .

في هذا المشهد يتجلى تعظيم خطاب الشرع عند حمنة رضي الله عنها، إذا نادت ربها بربوبيته، وأنه الرب الوحيد القادر على الإيجاد من العدم والزرق والخلق، (فقالت: ربّ) وهذا هو الإيمان الكامل الذي لا يوفق له إلا الصادق في الإيمان.

ونذرت له هذا الولد الذي ظلت تحلم به عمرها كله، والمعروف في منظور البشر الفطري أن الإنسان يطمع في الولد ليكون عونًا له في الحياة، ويكون خادمًا ومعيلًا لأبويه في كبرهما، لكن حمنة لم يكن هذا مطلبها، لأنها من أهل الإيمان، بل طلبت أن

---

(١) الطبري تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٢٤). تفسير والبيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٤/٢)، تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٦)

(٢) «تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٢/ ٢٧)

يكون لها ذرية تعبد الله وتخدم بيته، فحررت ما في بطنها خالصًا لله، فكان لها ما طلبت، وهذا دليل على تعظيم الخطاب الشرعي عندها.

- في قوله تعالى: {قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ}، خبر لا يقصد به الإخبار والإعلام، بل التحسر والتحزن والاعتذار.

قال الزمخشري[1] : "فإن قلت: فلم قالت: (إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ) وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسرًا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا، ولذلك نذرته محررًا للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن، قال الله تعالى (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) تعظيمًا لموضوعها وتجهيلًا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا، فلذلك تحسرت"[2] .

قال ابن عطية[3]: "قولها: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) تريد في امتناع نذره إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان، وبدأت بذكر الأهم في نفسها وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد"[4].

وقد يظن من يقرأ هذا أن فيه تعارضًا بين نداء الفطرة وخطاب الشرع، إذ المفترض الإيمان وقبول ما رزق الله، والحقيقة أنه لا تعارض بينهما، بل يتجلى تعظيم خطاب الشرع وقبوله، رغم أنه غير ما كانت ترجو، فالمتقرر عندها أنه لا فرق بين ذكر وأنثى

---

(١) محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري ، المعتزلي، النحوي اللغوي ، ومن تصانيفه: الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة. ت:٥٨٨هـ. طبقات المفسرين للداودي١٧٢-١٧٣،الأعلام١٧٨/٧.

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٥٦).

(٣) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية ، الغرناطي، مفسر فقيه، أندلسي، ولد سنة٤٨١هـ، وله التفسير المشهور المسمى بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ولي القضاء، وتوفي سنة ٥٤٦هـ، طبقات المفسرين، الداودي،.١٧٥، الأعلام، الزركلي، (٢٨٢/٣).

(٤) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٢٥).

إلا في مجال خدمة بيت الله، فالمعروف بالفطرة أن المرأة يعتليها الحيض ولا تستطيع المكث في المساجد لخدمة بيت الله، ولا يمكنها خدمة من يأتي لهذا البيت من الرجال، فلذا قالت كلمتها، (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) من هذا الجانب، وخفي عنها ما أعده الله لابنتها وابنها من الخير العظيم.

وهنا يتجلى الانقياد والقبول لخطاب الشرع وتعظيمه، كيف أنها اختارت لها اسمًا خاصًّا بالعبادة، وهذا دليل على وفائها بوعدها وعدم رجوعها عنه، وخوف تقديم نداء الفطرة ببقاء البنت عند أمها؛ بالانصراف للأهم في نظرها لهذه الفتاة وهو عصمتها من الشيطان أن يظلها ويغويها عن عبادة ربها، ولم تكتف بهذا، فنداء الفطرة عندها عالٍ، فطلبت أيضًا أن يعيذ ذريتها ويعصمهم من الشيطان، لأنها من بيت أهل إيمان وعلم، يعلم عدو أهل الإيمان وهو الشيطان، فالاستعاذة دائمة لابنتها ولذريتها بهذه الكلمة.

قال القاسمي[1]: "قصدت الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته، أو تسلية نفسها على معنى: لعل لله تعالى فيه سرًّا وحكمة، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر، (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) جملة معترضة أيضًا، إما من كلامه تعالى؛ قصد به معذرتها في التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها لا سيما في هذا المقام؛ أعني مقام قصد إخلاص النذير للعبادة، فإن الذكر يفضلها من وجوه منها: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان، ومنها: أن الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، ومنها: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى، ومنها: أن الذكر

(١) جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط، إمام الشام في عصره علمًا بالدين، وتضلعا من فنون الأدب، ولد عام١٢٨٣هـ، وتوفي عام١٣٣٢هـ في دمشق، كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، نشر بحوثًا كثيرة في المجلات والصحف، (ديوان خطب – ط) و (موعظة المؤمنين – ط) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و (محاسن التأويل – ط) في ١٧ مجلدا في تفسير القرآن الكريم»، «الأعلام للزركلي» (٢/ ١٣٥).

لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى، فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المقام، واللام في (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ للجنس، وعلى قولهم اللام للعهد فيهما أي ليس الذكر الذي طلبته وتخيلت فيه كمالًا، قصاراه أن يكون كواحد من الأحبار، كالأنثى التي وهبت لها، فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزية، وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل عن ذلك، فاللام للجنس"[(١)].

قال القرطبي [(٢)]: "وتكرر التأكيد في وإني سميتها، وإني أعيذها بك للتأكيد، لأن حال كراهيتها يؤذن بأنها ستعرض عنها فلا تشتغل بها، وكأنها أكدت هذا الخبر إظهارًا للرضا بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدعاء لها الدال على الرضا والمحبة"[(٣)]..

وهذا دليل على قوة انقيادها لخطاب الشرع وإيمانها إيمانًا تامًّا؛ أن ما رزقها الله هو الخير لها وللأمة، وأن الذكر والأنثى كل منهما له وظيفته التي أوكله الله بها، فيقوم بها كما أراد الله عز وجل.

المطلب الخامس: يا ليتني مت قبل هذا

مريم ابنت عمران:

التي وهبتها أمها لتكون عابدة لله وخادمة لبيته الحرام، وتقبلها ربها بالقبول الحسن، ونشأها التنشئة الحسنة، وكفلها نبيه زكريا ليقوم على تنشئتها، كانت عابدة زاهدة متبتلة لربها، وقد اصطفاها الله لتكون أم نبيه، ومعجزة عيسى عليه السلام.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٢/ ٣١١).

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمصر، وتوفي فيها سنة ٦٧١هـ. له: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في في شرح أسماء الله الحسنى، طبقات المفسرين للسيوطي (١/ ٩٢)، طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٣٣).

العفة والطهر والإيمان:

قال جل ثناؤه: {وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾} **[سورة آل عمران:٤٢-٤٥].**

وقال في موضع آخر: {وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾} **[سورة مريم:١٦-٢٩].**

تفسير الآيات:

يقص الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ما كان من شأن مريم عليها السلام؛ إذ نادتها الملائكة فقالت لها: يا مريم، إن الله اجتباك واختارك وطهرك في الخلق والدين، وفضلك على نساء العالمين، يا مريم؛ إن هذا الاصطفاء والتطهير نعمة كبيرة من الله تستحق منك الشكر، فلتكن عبادتك خالصة لله وحده، وداومي عليها، وصلي مع المصلين العابدين الخاشعين، ثم قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه

وسلم: إن كل ما تقدم ذكره من أنباء وقصص هي أخبار خفية غيبية، لم تكن تعلمها أنت ولا قومك، ونحن قصصناها عليك؛ لتكون شاهدًا وبرهانًا على صدق ما جئت به، ولم تكن –يا محمد– حاضرًا حين اجتمع زكريا وقومه واقترعوا في شأن مريم؛ لينظروا أيهم يكفلها ويضمها إليه، واختصموا في أمرها، وإنما جاءك خبر هذا بالوحي، وإلا لما علمت به، ولا وصلك نبؤه.

واخبر جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم بمجيء الملائكة إلى مريم تحمل لها البشرى بغلام يوجده الله بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، نسبة إلى أمه؛ لأنه لا أب له، والذي سيكون من صفاته أنه ذو وجاهة عالية، ومنزلة رفيعة عند الله في الدنيا والآخرة، ومن المقربين إليه، وأن من معجزاته تكليم الناس في حال طفولته؛ تبرئة لأمه، ودعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويكلمهم في حال كهولته تكليم المرسلين بما يوحيه الله إليه، وأنه من عباد الله الصالحين، ثم يذكر الله تعالى جواب مريم: يا رب، كيف يكون مني ولد وأنا لم يمسسني بشر؟! فأخبرها سبحانه أن هذا الفعل المستغرب والخارق للعادة هو من فعل من بيده الأمر؛ فهو يخلق ما يشاء، كيفما يريد، وإذا أراد شيئًا، فإنما يقول له: كن؛ فيكون الأمر كما أراد سبحانه، وقد تباعدت عن أهلها، واتخذت لها مكانًا جهة الشرق، فجعلت بينها وبين أهلها سترًا يسترها عنهم وعن الناس، لتتفرغ للعبادة، فأرسلنا إليها جبريل، فتمثل لها في صورة رجل تام الخلق، جميل الصورة، قالت مريم له: إني أستجير بالرحمن منك أن تنالني بسوء إن كنت تتقي الله فستنتهي بتعوذي منك، قال لها الملك: إنما أنا رسول ربك بعثني إليك؛ لأهب لك غلامًا طاهرًا من الذنوب، قالت مريم للملك: كيف يكون لي غلام ولم يمسسني بشر بنكاح، ولم أكن زانية؟! قال لها الملك: هكذا الأمر كما تصفين من أنه لم يمسسك بشر، ولم تكوني بغيًّا، ولكن ربك قال: خلق الغلام منك من غير أب علي سهل؛ وليكون هذا الغلام علامة للناس تدل على قدرة الله تعالى، ورحمة منا به وبك وبالناس، وكان خلقه على هذه الحالة قضاء سابقًا مقدرًا، فلما حملت وجاء وقت الولادة تذكرت قومها وما سيقولون

عنها، فقالت: (يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا)، ياليتني مت قبل هذا اليوم وكنت شيئًا لا يعرف، ولا يذكر ولا يدرى من أنا؟ ولا يظن بي السوء.

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال مريم بنت عمران عليها السلام، مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله تعالى: { قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا}، جمعت مريم عليها السلام بين الاعتصام بربها، وبين تخويف ذلك الشاب، وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة -خصوصا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع- من أفضل الأعمال؛ ولذلك أثنى الله عليها، فقال: {وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١} [سورة الأنبياء:٩١]، {وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢} [سورة التحريم:١٢]، فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله[(١)].

وفطرة المرأة السوية تميل إلى الرجل، والرجل أيضًا يميل بفطرته إلى المرأة، والشرع حد لهما حدودًا ليحميهم من الوقوع في الفتنة، فشرع الحجاب وسنّ الزواج، وشرع الحديث أو السؤال عن أي شيء من وراء حجاب ودون لين في القول؛ حفاظًا على عفة المرأة والرجل.

وفي مشهد مريم مع جبريل عليه السلام، تحققت عوامل العزلة من بعد مريم واتخاذها الحجاب عن أهلها وأعز الناس لها وخلوتها، وتمثله له بذلك الحسن والجمال الذي لا يعصم منه من لا يخاف الله، ظهر تعظيمها لخطاب الشرع والتجاؤها إلى ربها

(١) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٩١)

وعصمتها به فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، إن كنت تقيًّا خائفًا لله فإنك لا تقربني، لأن التقيّ لله معظمًا له ولا يرتكب شيئًا يغضب الله.

قال أبو السعود[(١)]: "فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه، فضلًا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة، نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه، وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة؛ التي هي العصمة مما دهمها، وقوله تعالى (إن كنت تقيا)، أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي فإني عائذة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتعرض لي"[(٢)].

قال السعدي: "جمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة من أفضل الأعمال"[(٣)].

- في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، رد من جبريل عليه السلام عليها ليطمئن قلبها ويحدد مهمته، فقال لها: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك، (لأهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا)، وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه.

عندها ظهر استجابة مريم عليها السلام لخطاب الشرع وانصرافها من الخوف إلى التعجب من وجود الولد من غير أب كما صور الله هذا الحوار، فقال جل ثناؤه:

---

(١) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك، درس ودرّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء، وهو صاحب التفسير المعروف باسمه وقد سماه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) و(تحفة الطلاب)، توفي سنة ٩٨٢هـ، الأعلام، الزركلي (٧/ ٥٩).

(٢) «تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٥/ ٢٦٠)

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٩١).

{قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ }، والاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ ولذلك أُجيب جوابان، أحدهما: كذلك الله يخلق ما يشاء؛ لرفع إنكارها، والثاني: إذا قضى أمرًا؛ لرفع تعجبها.

وفي هذا المشهد تتجلى فطرة المرأة التي تنزه نفسها وتبرئها من البغاء، أو مما يقتضيه هذا الوصف، لأن المتعارف عليه الولد يكون من النكاح الحلال أو من الزنا، وليس الأمر كذلك بالنسبة لها.

ولما اتضح لها خطاب الشرع، وأمر الله بأن يكون لها ولد هبة من الله وآية من آياته، لم يكن منها إلا أن آمنت وصدقت بأمر ربها وقدرته على الخلق والإيجاد من العدم، وإيجاد ولد من غير زواج في المنظور البشريّ مستبعد، وعبر عن تكوين الله لعيسى بفعل يخلق؛ لأنه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، فكان للفعل يخلق هنا موقع متعين؛ فهو يدل على الإبداع.

قال الرازي[1]: "تعجبت بما بشرها جبريل عليه السلام لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور، وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء، وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد، ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك"[2].

- في قوله تعالى: {فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا

(١) محمد بن عمر بن الحسين، الإمام فخر الدين الرازي القرشي البكري، الشافعي المفسر المتكلم، ولد سنة ٥٤٤هـ، له: التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، والمحصول في أصول الفقه،وغيرها.توفي٦٠٦هـ. طبقات المفسرين، السيوطي،١١٥، الأعلام، الزركلي، ٣١٣/٦.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٥٢٣).

تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾}، تصوير لاستجابتها لخطاب الشرع وأنها لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس، فلما قربت ولادتها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الناس، والجوع والعطش في هذه الحالة، ووجع قلبها من مقالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذه الحادثة، وكانت نسيًّا منسيًّا فلا تذكر، وهذا التمني بناء على التفكير في كلام الناس، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي[1].

وهذا أمر فطريّ عند المرأة في حالة الوجع تتذكر كل شيء تخاف منه، وهنا مريم تذكرت قومها وكيف حملت من دون زوج، وهي الآن في ألم المخاض وحيدة، وخائفة، فبين الله عز وجل أنه جاءها التطمين وتهدئة روعها وأول ما يهدئها هو تهيئة الطعام والشراب لها، وذلك أن المرأة بعد الولادة تحتاج إلى ما يقويها وتشعر بالجوع بعد الولادة، فكان من قدرة الله أن صرف نظرها إلى قدرته على تهيئة كل العوامل من حولها، لتكون عونًا لها على استعادة قواها، ليكون هذا دليل آخر على أن الله كما هيأ لها هذه العوامل أنه أيضًا سيبرؤها ويظهر تأييده لها ولطفه بها، ولم يعاتبها على تمني الموت في هذه الحالة.

قال الزمخشري: "تمنت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه له، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة، وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله، أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به، من اختصاص

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٩٢)، ومثله عند الطبري جامع البيان – ط هجر» (١٥/ ٤٩٨)، تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (٣/ ١٢)، وقيل: الذي ناداها هو ابنها عيسى، ولعله الأرجح.

الله إياها بغاية الإجلال والإكرام، لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام؛ أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبًا يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها"(١).

قال القرطبي: "(قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا) تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين: أحدهما أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك، الثاني لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك"(٢).

قال ابن كثير: "فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: {يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا} أي قبل هذا الحال، {وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا } أي لم أخلق ولم أك شيئًا"(٣).

في هذا المشهد يتجدد ويتفاقم صراع الفطرة وخطاب الشرع، صراع الفطرة في هذا الوقت أكبر، حيث الألم والوحدة وعدم وجود طعام وشراب مناسب، وخوف أن يظن بها قومها سوءًا، وأعظم شيء على المرأة الطعن في عرضها واتهامها؛ خاصة أنها جاءت بالولد دون أب!، فلما طمأنها بتهيئة كل الظروف لها صبرت، وهذا من كمال الانقياد لخطاب الشرع وعدم الالتفات لداعي الخوف الفطري، ولذا كانت مريم من خير نساء أهل الجنة كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)) (٤)

---

(١) «تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (٣/ ١٢).

(٢) «تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٩٢).

(٣) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٢٢٣).

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب (وإذ قالت الملائكة يامريم..) ١٢٦٥/٣حديث رقم:٢٣٤٩، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم: ٢٤٣٠.

المطلب السادس: قالت هيت لك

امرأة العزيز:

قيل اسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل، وقيل: زليخا بنت تمليخا، واسم الذي اشترى يوسف: قطفير، وقيل: اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد(١).

هوىً أعمى البصيرة:

قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩} [سورة يوسف:٢٢-٢٩].

تفسير الآيات:

يخبر الله تعالى أنه لما بلغ يوسف عليه السلام منتهى قوته في شبابه أعطاه النبوة والعلم، ومثل هذا الجزاء الذي جزينا به يوسف على إحسانه نجزي المحسنين على إحسانهم، ثم بينا سبحانه المحنة الجديدة ليوسف، حيث دعته امرأة العزيز إلى نفسها، وغلقت الأبواب، في إشارة إلى تهيئة كل الأمور ليوسف، وقالت: هلمّ إلي، فقال: معاذ الله! أعتصم به وأستجير من الذي تدعينني إليه من خيانة سيدي الذي أحسن منزلتي وأكرمني، فلا أخونه في أهله؛ إنه لا يفلح من ظلم ففعل ما ليس له فعله، ولقد عزمت

(١) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (٤/ ٣٧٨)، «البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٢٥٥).

امرأة العزيز على فعل الفاحشة، وخطر ليوسف خاطر عارض في قلبه لم يثبت ولم يتحول إلى عزم، لولا أن رأى آية من آيات ربه امتنع بها عن ذلك الخاطر، وإنما أريناه ذلك لندفع عنه السوء والفاحشة في جميع أموره؛ إنه من عبادنا المطهرين المصطفين للرسالة، الذين أخلصتهم من الشرك والسوء والفحشاء، فأسرع يوسف إلى الباب يريد الخروج، وأسرعت تحاول الإمساك به، وجذبت قميصه من خلفه؛ لتحول بينه وبين الخروج فشقته، ووجدا زوجها عند الباب، فقالت: ما جزاء من أراد بامرأتك فاحشة إلا أن يسجن أو يعذب العذاب الموجع، قال يوسف: هي التي طلبت مني ذلك، فشهد شاهد من أهلها فقال: إن كان قميصه شق من الأمام فصدقت في اتهامها له، وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه شق من الخلف فكذبت في قولها، وهو من الصادقين، فلما رأى زوج المرأة قميص يوسف شق من خلفه علم براءة يوسف، وقال لزوجته: إن هذا الكذب الذي اتهمت به هذا الشاب هو من جملة مكركن -أيتها النساء- إن مكركن عظيم، وقال ليوسف: يوسف، اترك ذكر ما كان منها، فلا تذكره لأحد، واطلبي -أيتها المرأة- المغفرة لذنبك؛ إنك كنت من الآثمين في مراودة يوسف عن نفسه، وفي افترائك عليه.

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها أحوال امرأة العزيز، مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله الله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}، يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن (رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر[1].

بدأ المشهد بنسبة الفعل إلى المرأة؛ في دلالة واضحة على الهوى الذي غلب

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٩٦).

عليها، والعزم الأكيد على تنفيذ رغبتها وشهوتها، فأخذت تراوده، والمراودة هي الإرادة والمحاولة برفق ولين لأجل أن يتحقق مطلوبها، والمرأة بفطرتها تميل للجمال وتحب التملك، وإذا كانت في مكان سلطة وتحت تصرفها كل شيء وقعت في اختبار صعب؛ إما تزل بسبب اتباعها الهوى، الذي يزين لها هذا الشيء ويدفعها إليه دفعا؛ كما حصل لامرأة العزيز، التي لم يردعها خوف من الله لأنها لم تكن مؤمنة في ذاك العصر، ولا ردعها الخوف من زوجها واحترام غيبته، فزلت بهواها، ولذا كررت المراودة مرة بعد مرة بلطف ورفق ولين، وهذا من تزيين الشيطان لهذا الأمر لها.

- في قوله الله تعالى: {وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ} زادت المصيبة، بأن{ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ } وصار المحل خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها {وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ } أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم(١).

إنه مشهد يصور إصرار المرأة وعزمها الأكيد على أن يقع يوسف معها في الفاحشة، فبعد المراودة؛ انتقلت إلى تجهيز المكان فغلقت الأبواب لتبين أنه لا أحد يراهما، ليطاوعها في هواها، وكانت تظن أن مثله سيطاوعها في هواها وغيها، فهو تحت ملكها وفي بيتها، وقالت: (هَيْتَ لَكَ)، فهمت به، والهَّم من طرفها يعني العزم الأكيد، وأما ما كان من يوسف فهو خطرات النفس.

وهنا يظهر غلبة الهوى في نفسها وبعدها عن أي اعتبارات أخرى، ولذا قال العلماء يحسن الوقف على قوله: (وَلَقَدۡ هَمَّتۡ ۖ)؛ ليظهر معنى الابتداء بجملة (وَهَمَّ بِهَا) واضحًا، وبذلك يظهر أن يوسف عليه السلام لم يخالطه هم بامرأة العزيز؛ لأن الله عصمه من الهم بالمعصية بما أراه من البرهان، فاستعاذ يوسف بالله من هذه المعصية

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٩٦).

وفر منها حتى وصل الباب، وقدت قميصه من دبر؛ في إشارة إلى بعد يوسف عن هذه المعصية، كما شهد شاهد من أهلها، وتهديد زوجها ليوسف، واعترافه انه من كيدها، وطلبه منها توبتها، ورغم هذا بقي الهوى في نفسها ولم تتب، بل لما وصل الخبر إلى النساء من حولها، عقدت العزم على كشف يوسف لهن ليشاهدن جماله ويعذرنها في حبه، ويطلبن منه أن يستجيب لطلبها، وهذا كله من اتباعها لهوى نفسها وانجرافها إلى هذه المعصية، وعدم خوف من الله أومن زوجها أو من مجتمعها، كما صورت الآيات هذا المشهد قال تعالى: { ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾} [سورة يوسف: ٣٠-٣٢].

عدم تعظيم أمر الله وتقواه يوقع في المعصية، والشيطان يزينها لصاحبها، والهوى لما يغوي صاحبه يوقعه في المعصية، كما حصل لامرأة العزيز، وكيدها بيوسف وكيدها بالنسوة؛ حتى أنهن قطعن أيديهن لما شاهدن جمال يوسف.

لكن يوسف المؤمن التقي اعتصم بالله واختار السجن على أن يقع في معصية الله ويكون صاغرًا ذليلًا بهذا، فلجأ إلى الله ودعاه أن ينجيه ويعصمه فاستجاب الله له، وعصمه ودخل السجن الذي هددته به، وظل فيه مدة حتى أذن الله له بالخروج بعد أن أول رؤيا الملك، وطلب منه قبل خروجه من السجن دليل براءته من تهمة النساء، فجمعهن الملك وسألهن عن يوسف، فبرّأنه من كل سوء، وهنا اعترفت امرأة العزيز بالحقيقة، بعد أن تعلمت من يوسف العفة والخوف من الله، فبرأت يوسف وأنها اتبعت نفسها الأمارة بالسوء كما قال تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ

ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾} [سورة يوسف:٥١-٥٣]، والإنسان إذا اعترف بذنبه وما كان سبب فيه غفر الله له، وتاب عليه.

وهنا تبين أن تعظيم خطاب الشرع بلزوم التقوى هو ما يعصم من الوقوع في الفتن والأهواء وأن الهوى واتباعه يكون سبب في الوقوع في الذنوب والمعاصي التي تعمي القلب وتوعد بعذاب الله.

المطلب السابع: لا نسقي حتى يصدر الرعاء

ابنتا صاحب مدين:

لم يرد في كتب التفسير تصريح باسمهما أو باسم والدهما الذي هو محل خلاف بين أهل التفسير، قال ابن جرير: "وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه: (ووجد من دونهم امرأتين تذودان ... قالت إحداهما يا أبت استأجره)، تعني بقولها: استأجره ليرعى عليك ماشيتك في إصلاحها وصلاحها، الأمين الذي لا تخاف خيانته فيما تأمنه عليه"(١).

الحياء والعفة:

قال تعالى: { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾} [سورة القصص:٢٣-٢٦].

تفسير الآيات:

يقول تعالى: ولما خرج موسى هربًا من مصر طلب من ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، وتوجه إلى مدين، ولما وصل ماء مدين وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون

(١) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر» (١٨/ ٢٢٤).

مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تمنعان غنمهما؛ لئلا تختلط بأغنام الناس، (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)، ما شأنكما تكفان غنمكما، ولا تسقيان مع الناس؟! (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)، قالتا لموسى: عادتنا أننا لا نسقي أغنامنا إلا بعد أن يصرف الرعاة مواشيهم، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع سقي الغنم بنفسه، فسقى موسى لهما غنمهما بلا أجرة، ثم انصرف إلى الظل، فقال: رب إني محتاج إلى أي شيء أنزلته إلي من أي خير كان، فجاءت إحداهما إلى موسى تمشي مستحية، قالت: إن أبي يدعوك ليكافئك على سقيك لنا الغنم، فلما جاء موسى إلى أبيها وقص عليه خبره مع فرعون وقومه، قال له الأب: لا تخف؛ فقد نجوت من هؤلاء القوم الظالمين؛ إذ لا حكم لهم بأرضنا، قالت إحدى المرأتين: يا أبت استأجر هذا الرجل؛ لرعي غنمنا وسقيها، إن خير من تستأجره القوي الأمين، قال الأب لموسى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن ترعى لي الغنم ثماني سنين، فإن أتممت المدة إلى عشر سنين فذلك تفضل وإحسان منك، وما أريد أن أكلفك ما يشق عليك، ستجدني إن شاء الله من الصالحين.

هدايات الآيات:

في الآيات هدايات يتضح من خلالها تعامل الفتاتين مع موسى، وأحوالهما مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

- في قوله تعالى: { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} ، يؤخذ من الآية: جواز محادثة الرجل للمرأة الأجنبية ما لم يكن في ذلك فتنة لهما، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لهما: ما خطبكما؟ وجواز مباشرة المرأة الأعمال، والسعي في طرق المعيشة، ومعالجتها أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس؛ إذا كانت تستر ما يجب ستره، مع عدم مزاحمة الرجال، وأن يكون ذلك للحاجة، وهو حكم قد جاءت به شريعتنا وأقرته. وهذا مما يتوافق مع خطاب الشرع ويؤيده العقل، لتكفي المرأة نفسها وأهلها، فقد جاء الرد من الفتاتين مفصلًا لحالهما، أنهم يخرجان لسقي الأغنام والقيام على شؤونهما، لكنهما لا يزاحمان الرجال وأن من عادتهما الانتظار حتى يصدر الرعاء وينتهون من سقيهم وعدم مزاحمتهم، لكي لا يعرضا نفسيهما لملامسة الرجال، ووضحا سبب خروجهما لهذا

العمل، وهو كبر أبوهما، وعدم وجود من يقوم مقامه في هذا، فخرجتا وحفظتا نفسيهما وأهلهما، فسقى لهما موسى ولم يطلب منهما شيء، ثم انصرف عنهما.

- في قوله تعالى: { فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا }، فجاءت موسى إحدى المرأتين اللتين سقى لهما تمشي على استحياء من موسى، قد سترت وجهها بثوبها[1]؛ إشارة إلى توافق فطرتها مع خطاب الشرع والتزامها به، ومن هنا استنبط تغطيتها لوجهها، وذلك من تصوير طريقة المشي، وأن فيه حياء وانكسار وليس اندفاع وكبر كما يلاحظ هذه الإيام، وهذا لا يتنافى مع تأديتها للمهمة التي تريد تنفيذها، وهي مخاطبة هذا الرجل بكل حياء وقوة: (قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

قال السعدي: "وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته {تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}، وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء، ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، فـ {قَالَتْ} له: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} أي: لا لِيمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى"[2].

قال ابن عاشور: "والمعنى: أنها مستحيية في مشيها، أي تمشي غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة، وعن عمر بن الخطاب أنها كانت ساترة وجهها بثوبها، أي لأن ستر الوجه غير واجب عليها، ولكنه مبالغة في الحياء، والاستحياء مبالغة في الحياء"[3].

حياء المرأة لا يمنع من إبداء الرأي وطرح الأفكار المؤيدة بالأدلة، فهذه الفتاة أبدت رأيًا واضحًا؛ في طلب أن يعمل موسى عند أبيها، وبينت سبب هذا الطلب (إن خير من استأجرت القوي الأمين)، وذلك لما رأت من أمانة وقوة موسى في تعامله معهما، وأنه لم

(١) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر(٢١٨/١٨).

(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٦١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٠٣/٢٠).

يظهر منه أي أمر يثير الخوف والريبة منه. وهذا لا يتعارض مع خطاب الشرع بل يتفق مع فطرة المرأة وعقلها، وهو حاجة النساء إلى الرجال ومساعدتهم لهن في أعمالهن، وعلقت الأمر بـــ(إن خير من استأجرت القوي الأمين) القوي في أداء الأعمال مهما بلغت، أمين عليك وعلى عرضك ومالك.

روي عن ابن عباس، قال: "{قالت إحداهما يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين} [القصص: ٢٦]، قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته، فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه؛ وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت "[1].

فقد يظن أن فطرة المرأة وجود رجل من حولها تميل إليه، لكن نشأتها في بيت رجل صالح جعلها تعلل سبب مقولتها؛ إن خير من استأجرت القوي الأمين تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار، وهو أيضًا كلام حكيم جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان –الكفاية والأمانة– في القائم بالأمر، فقد فرغ البال، وتم المراد، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته وأمانته. وهو أيضا أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص، وأبقى للحشمة، وخصوصًا إن كانت فهمت أن غرض أبيها أن يزوجها منه، وهنا تجلى مشهد فطرة المرأة وحيائها وعقلها وتعظيمها لشرع ربها، فالعفة والحياء أمر مطلوب للمرأة ولا يتعارض مع أحكام الشريعة، بل هو السياج الحامي للمرأة في ظل أي ظرف.

المطلب الثامن: كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين

امرأة نوح وامرأة لوط:

ذكر أن اسم امرأة نوح والهة وقيل واغلة، واسم امرأة لوط والعة وقيل والهة، ولم يثبت دليل على هذا، وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها: إن جبريل نزل على النبي

(١) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (٢٢٥/١٨).

× فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والهة. (١).

هوى وجهل:قال تعالى: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠} [سورة التحريم:١٠].

تفسير الآيات: يبين الله في هذه الآيات حال ومآل زوجتيْ نبيين من أنبيائه، امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، كانتا زوجتين لعبدين صالحين من عباد الله تعالى، فخانتاهما ولم يؤمنا برسالتهما؛ فلم يدفعا عن امرأتيهما شيئًا من عذاب الله، وحل عليهما ما حل بقومهما من العذاب، وقيل لامرأتيْ نوح ولوط: ادخلا النار مع غيركما من الداخلين فيها الباقين في العذاب المهمين، وجعلهم الله مثلا يضرب لعلاقة المؤمن بالكافر وأنه مهما بلغت القرابة والعشرة إلا أن الإيمان هو أصل العلاقة وأساس النجاة في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة.

هدايات الآيات: في الآيات هدايات يتضح من خلالها حال وتعامل امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، وتقديمهما داعي الهوى على خطاب الشرع ونداء الفطرة، ويظهر هذا:

– في قوله تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا)، فيه أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتيْ نوح ولوط، فقد طغى عليهما الهوى وسلكا مسلك الكفر والطغيان. قال ابن جرير: "مثل الله مثلا للذين كفروا من الناس وسائر الخلق امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانتاهما، ذكر أن خيانة امرأة نوح زوجها أنها كانت كافرة، وكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأن خيانة امرأة لوط، أن لوطًا كان يسر الضيف، وتدل عليه"(٢).

في هذا المشهد يظهر بجلاء طغيان الهوى في نفسي زوجتي نوح ولوط عليهما السلام، وعدم تعظيمها لخطاب الشرع ولا لنداء الفطرة الداعي إلى استجابة المرأة لزوجها

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠١)، البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢١٥).

(٢) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (١١١/٢٣).

وسلوكها نفس سلوكه، فقد عاشتا في بيت نبوة ورغم طول المدة في عشرتهم، إلا أن الإيمان لم يدخل قلوبهما، ولم يتأثرا بأزواجهما أو أولادهما، فاختارتا الكفر وهوى نفسيهما على الحق الواضح في بيوتهن، فكان جزاءهما أن جعل الله عاقبتهما النار وأن علاقتهما بأزواجهن لن تنفعهن، لأن أساس العلاقات الإيمان بالله تعالى.

ومن هنا يتبين أن الفطرة وخطاب الشرع لا يتعارضان أبدًا، ولكن الفطرة غير السوية والتي تتبع هواها هي الفطرة التي تخالف خطاب الشرع، وهو نتيجة عن الجهل الذي يمنع من اتباع الحق ومن ثم الاتفاق بين نداء الفطرة وخطاب الشرع.

المطلب التاسع: وامراته حمالة الحطب

امرأة أبي لهب:أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية، وكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ ، وقيل: اسمها العوراء، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء.

هوى وكفر: قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥} [سورة المسد:١-٥].

تفسير الآيات: افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: تبت: أي خسرت وهلكت يدا أبي لهب، وقد تحققت خسارته وهلاكه، لم ينفعه ماله وما كسبه من الأولاد أو غيرهم، سيدخل نارًا ذات إحراق شديد هو وزوجته الحمالة للحطب، في عنق امرأته حبل مفتول، وأعقب ذم أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته؛ لأنها كانت تشاركه في أذى النبي ×، وتعينه عليه، وتجمع على ظهرها الأوزار، بمنزلة من يجمع حطبًا، وقد أعد لها في عنقها حبلًا من ليف، وقيل: أنها تحمل في النار الحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبل من مسد.

هدايات الآيات: في الآيات هدايات يتضح من خلالها حال امرأة أبي لهب، مع خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، التي يدور حولها موضوع البحث، منها:

قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣

وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥}، نزلت هذه السورة في أبي لهب وامرأته، وهما من أشرف بطنين في قريش، فأبو لهب عم النبي × وعم علي، وامرأته عمة معاوية، وليس في القرآن ذم من كفر به × باسمه إلا هذا وامرأته؛ ففيه أن الأنساب لا عبرة بها، بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم، وفيه إشارة إلى أن تعظيم خطاب الشرع هو المقدم في العلاقات، والجزاء يكون عليه في الدنيا والآخرة.

– في قوله تعالى: (سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) وصف بعلها وهو يصلى، وهي تحمل الحطب عليه، كما أعانته على الكفر؛ فيكون من حشر الأزواج، وفيه عبرة لكل متعاونين على الإثم، أو على إثم ما، أو عدوان ما.

وفي هذا إشارة إلى جهلها واتباعها الهوى الذي أعمى بصيرتها عن اتباع الحق وتعظيم خطاب الشرع فزلت مثل ما زل زوجها، وكفرت كما كفر زوجها.

وقد يقال أن اتباعها لزوجها من فطرة المرأة أنها تتبع زوجها فنقول هناك فطرة سوية وهناك فطرة هوى، وهنا أم جميل اتبعت فطرتها السيئة وخالفت خطاب الشرع بالإيمان بالنبيّ، واختارت الكفر والهوى.

– في قوله تعالى: (وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ)، ورد عن ابن عباس والضحاك وغيرهما: أنها كانت تأتي بالشوك تطرحه بالليل في الطريق، حملها على هذا اتباعها لهوى نفسها واستكبارها عن عبادة الله وكفرها، لم تكتف بالكفر، بل سلكت السبل في الكفر والعناد وهذا من مخالفتها للفطرة السوية، وهي إماطة الأذى عن الطريق.

– في قوله تعالى: (فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ)، استخدم الله جل جلاله، أسلوب التهكم؛ فصورها تصويرًا في منتهى الخسة والقماءة، والمعنى في جيدها حبل من مسد: من الحبل، وأنها تحمل تلك الحزمة وتربطها في جيدها؛ تخسيسًا لحالها، وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن –جمع ماهن، وهي الخادم– لتمتعض من ذلك، ويمتعض زوجها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجدة، وقيل: إنما

عبر عن قلادتها بحبل من مسد على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث.

قال ابن عاشور: "وقدم الخبر من قوله: (فِي جِيدِهَا) للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عوضت فيها بحبل في جيدها عن العقد الذي كانت تحلي به جيدها في الدنيا فتربط به، إذ قد كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء، وقد ماتت أم جميل على الشرك"[(١)].

وفي هذه الآية بيان وعاقبة من يخالف خطاب الشرع ويتبع هواه بغير علم ويخالف الفطرة السليمة، في إشارة إلى أن الفطرة السليمة لا تتعارض مع خطاب الشرع ولا تتنافى مع الأخلاق والآداب العامة.

(١) «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٧).

الخاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، تم هذا البحث وخلصت إلى النتائج التالية:

– من خلال دراسة الآيات الواردة فيها القصص تباينت أحوال النساء في هذه القصص بين خطاب الشرع ونداء الفطرة وداعي الهوى، كل بحسب قوة وضعف ايمانه.

– من خلال البحث اتضحت الأسباب والدوافع لتقديم خطاب الشرع ونداء الفطرة على دواع الهوى عند النساء، وهي قوة الإيمان والبيئة التي نشأت فيها النساء، وبذلك كن قدوات تقتدي بهن النساء على مر الزمان.

– العقل الصريح أداة ووسيلة فهم وامتثال خطاب الشرع، فهو خادم له وممتثل لأوامره ونواهيه، ومنادٍ للفطرة، وواعظ للنفس بوقوفها على فطرتها، ومانع لها من اتباع الهوى.

– أن خطاب الشرع خطاب محكم يراعى حق الشارع عز وجل، ويحفظ حق العبد في دينه ونفسه وعقله وعرضه وماله، وهو مراعٍ للإنسان وفطرته، وهو مقر بالفطرة وما جبل عليه العبد، من حب البقاء وحب المال والزوج والولد، وموافق للفطرة في عقائده وأحكامه، فكان الإسلام هو دين الفطرة، ومنظم للفطرة، وقد يخالف خطاب الشرع الفطرة أحيانًا ابتلاء وتمحيصًا ورفعة للعباد.

– أن نداء الفطرة هو نداء وجدانيّ، يظهر فيه توافق النفس مع العقل، ويحقق للعبد غاياته ومصالحة وسلامته من الآفات والمفاسد، وهو متسق مع خطاب الشرع، وينتج عنه الانقياد لخطاب الشرع وعدم مخالفته ومصادمته.

– أن داعي الهوى هو ميل النفس إلى ملذاتها وشهواتها بطغيان، وبمخالفة الفطرة والعقل، وبردٍّ لخطاب الشرع، والاستجابة لداعي الهوى حالة نفسية ظاهرة وبيّنة في فسادها وخطئِها وآثارها.

– أن الإيمان بالله سبحانه واليقين بقدرته مقدم على العقل البشري وما هو غير معهود في منظور البشر.

– الإيمان الحقيقي إذا وقر في القلب ووافقته الفطرة السليمة لم يزاحمها ملذات الدنيا ولا جاهها، وكان المنقذ من الكفر وأهله.

– أن الفطرة السليمة داعية لصاحبها للفضيلة ومانعته من الوقوع في الفاحشة، وأن ضعف الإيمان والخوف من الله وفساد الفطرة واتباع الهوى سبب في وقوع الفاحشة.

–الحياء والعفة نابعة من تعظيم خطاب الشرع ومتوافقة مع الفطرة السليمة.

التوصيات:

يوصى الباحث بالتدبر والتأمل في قصص النساء في القرآن الكريم، وإبراز القدوات من خلال الدراسة، وإقامة دروس ومحاضرات عامة حول الموضوع، وذلك لحاجة النساء لمثل هذه الموضوعات.

المصادر والمراجع

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم-أبوالسعود بن محمد العمادي-تحقيق، عبدالقادر أحمد عطا-دار الفكر-بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٢هـ.

أسماء الله الحسنى ،لعبد الله بن صالح بن عبدالعزيز الغصن، دار الوطن، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

الأعلام للزركلي. نشر دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

البحر المحيط (تفسير أبي حيان). أبو حيان محمد ابن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ت٧٧٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٠هـ.

التبيان في أقسام القرآن ، لأبي عبد الله بن محمد بن القيم الجوزية ، دار الفكر ، بيروت.

التحرير والتنوير (تفسير ابن عاشور) محمد الطاهر بن عاشور طبع دار التونسية (١٤٠٤هـ).

التفسير الكبير (تفسير الرازي) لفخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق ، عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لنبان، ط الخامسة، ١٤٢٣ هـ.

الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق، أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تأليف/ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى/ ٥٣٨هـ) الناشر/ دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة/ الثالثة - ١٤٠٧ هـ

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، لابن عطية أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق، عبدالله الأنصاري والسدي عبدالعال إبراهيم، ط، دار الكتاب الإسلامي، ط٢.

بغية الوعاة ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ط ١٤١٩هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت.

تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، للإمام الجليل الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

تفسير البغوي (معالم التنزيل)، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت، ٥١٦هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

تفسير البيضاوي (المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ؛ لعبد الله بن عمر بن محمد ابن علي أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، توفي سنة ٦٨٥هـ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨هـ.

تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ، للشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي تحقيق وعناية عبد الرحمن اللويحق ، ط١ ، ١٤٢٣هـ مؤسسة الرسالة.بيروت.

تفسير الطبري تحقيق د. عبدالله التركي، ط١، ١٤٢٢هـ ، دار هجر ، القاهرة

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠هـ، تحقيق، أحمد ومحمود محمد شاكر، طبع دار المعارف بمصر. ولم يكملاها.

تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ،، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العلمية ، عيسى البابي.

تفسير القرآن الكريم ،للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).

جامع العلوم والحكم لابن رجب،ط دار الفكر صورة عن طبعة مصطفى الباني الحلبي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ).

جامع المسانيد، تأليف، أبو المؤيد محمد بن محمد الخوارزمي (٦٦٥ هـ) الناشر، دار الكتب العلمية

ذم الهوى، تأليف، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ)المحقق، مصطفى عبد الواحدمراجعة، محمد الغزالي

ذيل طبقات الحفاظ (للذهبي)، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي(ت، ٩١١ هـ)، نشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

صحيح البخاري ، لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ،، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ ، دار ابن كثير ، اليمامة ،بيروت.

طبقات الحفاظ، تأليف/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى/ ٩١١هـ) الناشر/ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة/ الأولى، ١٤٠٣

طبقات المفسري، لجلال الدين السيوطي، مكتبة وهبة، القاهرة، الأولى، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، تحقيق، علي محمد عمر.

طبقات المفسرين – أحمد محمد الأدنه وي، تحقيق د. سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ.

طبقات المفسرين، لجلال الدين السيوطي، مكتبة وهبة، القاهرة، الأولى، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، تحقيق، علي محمد عمر.

فتح الباري ، لأحمد بن علي ين حجر العسقلاني ،، تحقيق محب الدين الخطيب ،دار المعرفة ، بيروت.

فتح البيان، صديق حسن خان، تحقيق، عبدالله الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ.

محاسن التأويل (تفسير القاسمي) لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة، دار إحياء الكتب العربية.

مقاصد الشريعة الإسلامية، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة، محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.